الكتب والمطالعة (١)

اتي على الانسان حين الدهر لم يكن فيه يعرف الكتابة ولا يفتقر اليها لاقتصاره على بساطة العيش واكتفائه ببعض اشارات والفاظ للدلالة على ما يريده من المعاني . ثم لما تحسنت احوال معيشته وارتقت شؤونه الاجتماعية شعر باحتياجه الى نقل معانيه من مكان الى آخر وتدوين افكاره واعماله وحوادث حياته ليطلع عليها من يأتي بعده واشتدت به الحاجة والحاجة امّ الاختراع فاخترع الكتابة في زمن مجهول لم يستطع العلماء ان يتوصلوا الى معرفته مع كثرة البحث والتنقيب .

وكانت الكتابة في اول امرها صورية اي قائمة بصور تدل على المعاني ثم تحولت على توالي العصور الى صوتية اي قائمة بعلامات تدل على الصوت البشري . اما الصورية فكانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها الصور تشابه مصوراتها مشابهة حقيقية كصور الرجل والمرأة والطفل والحمل والكلب والذئب والزهرة والشجرة والسكين والفأس وغيرها للدلالة على هذه المذكورات بعينها .

والثانية ما كانت فيه الصور تشابه مصوراتها مشابهة مجازية كصورة رأس رجل على بدن اسد للدلالة على الشجاعة . وصورة امرأة حاملة بيدها حمامة للدلالة على الوداعة . وصورة ريش الطاووس في الخط الهيروغليفي للدلالة على الصدق .

والثالثة ما كانت فيها الصور غير مشابهة لمصوراتها وانما هي كنايات عن المعاني التي يراد التعبير عنها كصورة الطائر صاعداً او نازلاً للدلالة على الصعود او النزول . وصورة الساقين للدلالة على المشي او الركض وصورة العين والماء بقربها للدلالة على البكاء . فبهذه الصور الحقيقية والمجازية والرمزية توصل الناس الى التعبير عن الذوات والمعاني والعلاقات التي بينها . ولكنهم وجدوا ان هذا التعبير قاصر كثير

---

(١) خلاصة محاضرة للاستاذ السيد انيس سلوم القاها في ردهة المجمع العلمي في ٢٧ تشرين الاول سنة ١٩٢٢ م .

الغموض والالتباس فحاولوا ان يجدوا طريقة اسهل واوضح منه وما زالوا يعملون افكارهم حتى تيسر لهم الانتقال الى الكتابة الصوتية او اللفظية . وهذه ايضاً كانت على ثلاث درجات : الاولى ما كانت فيها كل صورة او علامة تدل على كلة كاملة فاستلزمت ان تكون العلامات فيها كثيرة على قدر كلات اللغة كما في الخط الصيني والخط المكسيكي .

والثانية ما كانت فيها كل علامة تدل على مقطع واحد كما في الخط الحبشي والمراد بالمقطع حرف متحرك او حرفان اولهما متحرك والثاني ساكن فقل فيها عدد العلامات بحيث لم يتجاوز خمس مئة علامة كانوا يكتبون بها كل كلات اللغة كما تبين من كتابات قدماء الاشوريين والبابليين .

والثالثة ما كانت فيها العلامات تدل على ابسط الاصوات البشرية لا على المقاطع وهذه العلامات صارت حروفاً سمي مجموعها بحروف الهجاء او حروف المباني وهي التي نستعملها اليوم . وبواسطة الكتابة الصوتية وتسطير الحوادث واتيا محدثيها وزمن حدوثها ابتدأ عصر التاريخ البشري الحقيقي وكان لهذا النوع من الكتابة شأن عظيم في تمدن الجنس السامي مدة اربعين قرناً . اما الحروف الهجائية فلا يعلم بالتحقيق الى الشعوب اخترعها فقد قيل ان مخترعيها المصريون وقد عثر من عهد قريب على كتابات ترجح هذا الرأي وقيل الكلدانيون وقيل الهنود وقيل العرب وقيل الفينيقيون والقول الاخير هو المرجح عند الاكثرين لان الفينيقيين هم الذين نشروها في الشرق والغرب فانهم كانوا اشهر امة باتساع متاجرهم وطول اسفارهم فاشاعوا استعمال هذه الحروف بين العبرانيين والعرب والهنود ثم حملوها الى اليونانيين فشاعت عندهم ثم انتقلت الى الرومانيين والاسبانيين والسلاف القدماء والجرمانيين وغيرهم وكان لها شأن عظيم في تمدن الجنس الآري مدة ثلاث آلاف سنة .

اما المواد التي كان القدماء يكتبون عليها فكانت مختلفة باختلاف الشعوب والازمنة والامكنة والاحوال فالمصريون كانوا يكتبون الحوادث على صفحات الجبال وحجارة الاهرام وغيرها ولما اشتدت حاجتهم الى الكتابة وشعروا بصعوبة النقش في الحجارة اخذوا البردي المعروف بالبابيروس (وهو نبت كان يكثر في المستنقعات

على ضفتي النيل وفروعه) وعالجوه بما يجعله صالحاً للكتابة وكتبوا عليه ما شاؤوا . والاشوريون كانوا يكتبون حوادثهم على الواح من خزف قبل ان يشوى ثم يشونه ليبقى متيناً على ممر الادهار . واهل الهند كانوا يكتبون شؤونهم واغراضهم على نسج من حرير . والصينيون كانوا يطبعون كتبهم على قطع كبيرة من الخشب يصورون على اوجهها الحروف بالنقر . واهل المكسيك كانوا يحفظون تاريخ بلادهم ومعارفها على منسوجات قطنية مصبوغة بالوان مختلفة مرسوم عليها احرف وعلامات غريبة . قال احد المؤرخين « لما فتح الاسبانيون بلاد المكسيك وجدوا فيها كتباً قديمة وكتابات ورسوماً وصوراً في المنسوجات وجلود الحيوانات وقشور الشجر وسجلات قديمة فاتلفوها غير مبقين على شيء منها و يظن انه لو كانت هذه الآثار باقية الآن لتوصل العلماء الى حل رموزها وعرفوا اصل الامة المكسيكية وتاريخها و كيف وصلت الى العالم الجديد » .

واليونانيون والرومانيون والعبرانيون كانوا يكتبون الحوادث على الرقوق المتخذة من جلود الحيوانات وبقيت الرقوق تستعمل للكتابة بعد ظهور الورق النباتي بقرون عديدة وفي مكاتب اوربة سجلات وعقود واحكام وغيرها كتبت على الرق بعد القرن العاشر للميلاد . ويقال ان رق الغزال لا يزال مستعملاً عند بعض الفقهاء لهذا العهد .

اما العرب فكانوا يكتبون على عسيب النخل والواح العظام وبعض انواع الحجارة المصقولة التي كانوا يجدونها في بواديهم (وعرب وادي الفرات وبلاد اليمن كانوا يكتبون على الحجارة الصلبة ايضاً) . ولما انتشروا في البلاد في عهد الخلفاء الراشدين اخذوا عن اهلها اساليب الحضارة واحتاجوا الى التبسط في الكتابة فكتبوا في بغداد على الحرير وفي مصر على البردي ثم استخدموا الجلود بعد ترقيقها ثم لما طما بحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل السلطان وصكوكه وضاقت الرقوق عن ذلك اشار الفضل ابن يحيى بصناعة الورق وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه واتخذه الناس من بعده صحفاً لمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في صناعته ما شاءت وكانوا يسمونه بالكاغد على ما ذكره ابن خلدون ثم سمي بالقرطاس ثم شاع اسمه المستعمل اليوم وهو الورق وما الورق في الاصل الا اسم لما يخرج غالباً على الاغصان ويكون للنبات بمنزلة الرئة للانسان .

قال احد علماء العرب : « الورق لم يوجد في الكلام القديم بل هو اسم للجلود رقاق يكتب فيها وهو مستعار من ورق الشجر » . وقد كثر استعماله وانتشرت له معامل في سمرقند وبغداد والقاهرة ودمياط ثم انتشرت صناعته في الشام وشمالي افريقية وانتقلت منها الى بلاد الغرب فضربت فيها اطنابها وارتفت فيها ارتقاء باهراً لهذا العهد . وقد نظر بعضهم في معامل ورق الارض فوجدها نحو اربعة آلاف معمل يصنع فيها كل سنة نحو الف الف وستمائة انكليزي من ورق الخرق وورق التبن او يبس العشب وغيره وينفق نحو نصف ذلك في المطابع وينفق من هذا النصف نحو ثلاثمائة الف وستمائة مطبوعاً جرائد مختلفة والنصف الآخر ينفق في اعمال ارباب الحكومة والمدارس والتجارة وغيرها الا ان الفضل في ادخال هذه الصناعة الى بلاد الغرب راجع الى مستنبطيها الاولين وهم العرب كما كان الفضل في ادخال الحروف الهجائية اليها راجعاً الى الفينيقيين سكان هذه البلاد الاقدمين .

واول قلم كتب القدماء به هو الازميل الذي كانوا ينقشون به ما يريدون كتابته نقشاً في صفائح الحجر والخزف والمعادن ثم استعملوا اقلاماً محددة الرؤوس من الحديد والنحاس والفضة والعاج وكانوا يكتبون بها على صفائح الرصاص والخشب والشمع ولما أبدلت تلك الصفائح بالرقوق المصنوعة من جلود الحيوانات والقراطيس المصنوعة من البردي واوراق الشجر أبدلت اقلام المعدن باقلام القصب ولم تزل مستعملة في الشرق الى هذا اليوم . اما اهل الغرب فأبدلوها باقلام من ريش الاوز ثم باقلام معدنية ثم تفننوا فيها تفنناً بديعاً حتى اخترعوا آخراً اقلام الحبر وهي التي يوضع الحبر فيها فيستغنى بها عن الدواة وقد سماها بعضهم الاقلام المدّادة اي ذات المداد وهو الحبر . وكان حبر القدماء ماء الصمغ والفحم او الكَتَن وهو (قفخ الدخان) قيل ان كتبة اليونانيين والرومانيين كفرجيل وزنيفون كانوا يكتبون رواياتهم وقصائدهم بذلك الحبر .

وكانت الكتابة شائعة بين الامم الشرقية القديمة في وادي النيل ووادي الفرات وسورية وبلاد العرب والصين والهند وغيرها وذكرت في اقدم اسفار التوراة وهي

اسفار موسى الكليم وسفر ايوب الصديق باسلوب يدل على انها كانت معروفة منذ زمان قديم .

واقدم الخطوط التي اكتشفها علماء الآثار الخط المصري المعروف بالهيروغليفي والخط الكلداني المعروف بالاسفيني او المسماري والخط الحميري المعروف بالمسند اما الخط الحثي فهو من نوع الهيروغليفي الا ان معناه لم يكشف الى الآن .

واول من عني بجمع الكتب سرجون الاول الذي انشأ مملكة بابل القوية قبل المسيح بنحو اربعين قرناً وكان ظهيراً للعلم فجمع كتب العصور الخالية ونقحها ووضعها في المكاتب العظيمة التي شادها او كبرها وهي اقدم المكاتب واثمنها . وذكر ديودورس المؤرخ الصقلي ان احد ملوك المصريين من الاسر الاولى انشأ مكتبة في قصره بمدينة طيبة عاصمة ملكه وكتب فوق بابها « هناء دواء النفوس » .

وفي عهد ملوك الاسرة السادسة في مصر قبل المسيح بنحو ثلاثة آلاف سنة كان احد كتاب الدولة يفتخر بانه تولى ادارة الكتب في المكتبة الملكية وطلب الى ذويه ان ينقشوا ذلك على قبره تنويهاً بفضله واحياء لذكره . وقد عمت العناية بالكتب اكثر الشعوب القديمة كالاشوريين والفينيقيين والحثيين والعبرانيين والعرب والفرس والهنود واليونانيين والرومانيين وغيرهم وبواسطتها حفظت اقوال الفلاسفة في كل العصور فمن المكاتب القديمة المشهورة عند اليونان مكتبة اثينا التي احرقها دارا ملك الفرس حينما اجتاح بلادهم وقيل انه نقل كتبها الى بلاد فارس .

ومكتبة جزيرة ساموس التي انشأها بوليكرات . ومكتبة ارسطوطاليس التي استولى عليها تيوفراستس واشتراها بطليموس فيلادلفوس ونقلها الى الاسكندرية عاصمة ملكه . وكانت مكتبة الاسكندرية اشهر مكاتب العالم بلغ عدد مجلداتها سبعمائة الف مجلد على رواية وتسعمائة الف مجلد على رواية أخرى .

ومن عجيب ما روي عن بطالسة مصر انهم كانوا ينتسخون كل كتاب يصل اليهم على نفقتهم ويأخذون من كل اجنبي يدخل مصر كتبه وينسخونها بكل ضبط ويعطونه نسخها ويضعون الكتب الاصلية في مكتبة الاسكندرية المار ذكرها ويدفعون الى صاحبها مالاً يرضيه . وكان العرب من اشد الامم الشرقية ولوعاً

بالكتابة وجمع الكتب فتركوا آثاراً كثيرة من كتاباتهم في ارض بابل كشرائع حمورابي الذي انشأ الامبراطورية البابلية القديمة (نحو ٢٢٥٠ ق.م) وكانت هذه الشرائع منقوشة بالحرف المسماري على مسلة من الحجر الاسود الصلب وهي من اقدم الكتابات التي وصلت الينا واقدم الشرائع المعروفة لهذا العهد. وكذلك تركوا آثاراً من كتاباتهم في بلاد اليمن وغيرها مما لا تطيل باستيفائه .

ولما توفرت لديهم الاسباب المادية والعقلية ابدعوا في التصنيف واغربوا في التأليف واولعوا بجمع الكتب وتطلبها من كل حدب وصوب واول من اعتنى بذلك الخلفاء الامويون بدمشق فأنشأوا المكاتب وانفقوا عليها الاموال الطائلة ووقفوا لها الاوقاف الكثيرة فانصب اعلمها على العلم فافلحوا ونبغ منهم عدد وافر من العلماء الاعلام . ثم جاء بعدهم الخلفاء العباسيون فملأوا بغداد بخزائن الكتب النفيسة ونقلوا الى اللغة العربية كثيراً من كتب اليونانيين والهنود والفرس وغيرهم فازهرت فيها اشجار التمدن وانبعت اثمار الحضارة . ولولا عنايتهم بجميع مصنفات اليونان والسريان وترجمتها لما بقي منها بقية في الشرق كله الا ما كان في كنيسة يوحنا النعمان بدمشق من الكتب اليونانية والسريانية فان المسلمين لم يمسوها عند فتحهم المدينة . ولما حول عبد الملك بن مروان الكنيسة الى جامع جعل هذه الكتب في قبة مقام النبي يحيى (يوحنا) فبقيت محفوظة لم يفقد منها شيء الى ان فتحها الالمان باذن السلطان عبد الحميد وقيل انهم نقلوا كثيراً من كتبها الى برلين .

ولم يكن الخلفاء بالاندلس اقل عناية بجمع الكتب من العباسيين بل جمعوا منها مئات الالوف . قيل ان عبد الرحمن الاموي حشد في قرطبة من افريقية وبلاد فارس ومصر والآفاق العربية نحو اربعمائة الف مجلد وقيل ستمائة الف مجلد كتبت اسماؤها في اربعين مجلداً وكان بالاندلس عدا هذه المكتبة سبعون مكتبة عامة وكان فيها ايضاً مكاتب خاصة بعضها كبيرة جداً . قيل ان احد علماء الاندلس رفض دعوة سلطان بخارا له لان حمل كتبه كان يقتضي اربعمائة جمل ولعل في ذلك مبالغة غير ان فيه دليلاً على كثرة كتب ذلك العالم واتساع مكتبته وهو رجل واحد فقط فما اكثر عدد الكتب التي كانت عند باقي الناس في قرطبة وغيرها من بلاد الاندلس .

وكان في مكتبة الفاطميين بالقاهرة مئة الف مجلد وقيل مئتا الف مجلد وفي قصر الخلافة اربعون خزانة فيها من الكتب انفس النوادر واثمن الذخائر وكان الخليفة الفاطمي يتردد على المكتبة العامة فيجيء اليها راكباً ثم يترجل عندها ويدخل غرفها فيطالع ما يشاء ويجول بين المطالعين يتفقد شؤونهم ويلاطفهم فكان احسن مشجع على مطالعة الكتب باقواله ومثاله . وكان بين بغداد والقاهرة مسابقة علمية ادبية اذ كانتا تتباريان الى العلم وتتنافسان في اقتناء الكتب المفيدة استئثاراً بالفضل . ومما يروى ان ابناء العراق اوفدوا رجلاً الى مصر فاتفق مع احد علمائها على ابتياع عشرة آلاف مجلد من نفائس كتبه العربية وهي ثلث مجموعته . واتصل الخبر بوزير مصر الافضل فاستكبر الخطب واستنكره وقال كيف تحرم مصر ذخائرها وهل يصح انتقال كنوزها الى غيرها ونحن احق بها واهلها اعرف الناس بقدرها ثم بعث من ماله الخاص الى العالم المصري بجملة الثمن الذي ساومه عليه رسول العراق ونقل الكتب الى خزانته وكتب عليها القابه . وكان في مكتبة ابي الفداء المؤرخ الشهير سلطان حماه مالا مزيد عليه من الكتب المختلفة النفيسة وكان في خدمته نحو مئتي عالم وفقيه واديب وفيلسوف وكاتب . وكان في مكتبة آل عمار في طرابلس نحو مئة الف مجلد وقيل ثلاثة آلاف الف مجلد ولكن ذلك مما لا يصدق . وبالجملة كان في كل البلاد الشرقية والغربية العربية مكاتب عامة ومكاتب خاصة حوت الوف الالوف من الكتب النفيسة ايام كان اقتناء الكتب يستلزم النفقات الطائلة لصعوبة نسخها قبل اختراع فن الطباعة فاين ذهبت تلك النفائس ! . يحزننا ان نقول ان اكثرها ذهب طعمة للنار وان كثيراً منها نقل الى مكاتب اوربة وبعضها لا نعلم اسماءها ولم يبق في بلادنا الا العدد القليل . ومن ذلك ما في دار الكتب في مصر ودار الكتب بالاستانة ودار الكتب بدمشق وما في بعض المكاتب الخاصة كمكتبة احمد تيمور باشا ومكتبة احمد زكي باشا بمصر ومكتبة الاستاذ السيد محمد كردعلي بدمشق ومكتبة الاستاذ السيد عيسى المعلوف برحلة وبعض مكاتب في بيروت وحلب وغيرهما من مدن سورية .

اما الغربيون فعنايتهم اليوم بتأليف الكتب وجمعها اوضح من ان توضح ففي فرنسه فقط ثلاثون الف مكتبة وقلما تخلو مدينة فيها من مكتبة او مكتبتين وفي مدينة

باريس وحدها عدد الكتب اربعة اضعاف عدد السكان . وعدد الكتب في برلين مضاعف عدد سكانها وعدد الكتب في لندن مساوٍ لعدد سكانها او يزيد قليلاً . وقد عم الولوع بجمع الكتب كل الاقطار الغربية فلا مملكة فيها ولا مدينة ولا قرية خالية من الكتب وقد اصبح جمع الكتب فرضاً على كل مهذب والمكاتب من لزوميات القصور الفخمة فكل قصر لا توجد فيه مكتبة كبيرة يحسب ناقصاً اهم الرياش والذخائر والنفائس ولم يقتصر الغربيون على العناية بجمع الكتب الغربية بل عنوا ايضاً بجمع الكتب الشرقية ولا سيما العربية فقد زينوا بها مكاتبهم وطبعوا كثيراً من نفائسها النادرة وحرصوا عليها اكثر من حرص العرب في هذا العصر على ما عندهم من آثار اجدادهم . ولم يزل اغنياؤهم يهبون الاموال الطائلة لنشر الكتب وتاسيس المكاتب في اوطانهم وغيرها تعميماً للعلم . ان كارنيجي وحده أسس في سنة واحدة بامير كا ٧٥٠ مكتبة وزاد عليها مثل هذا العدد في السنين التالية لها .

واعظم مكاتب الدنيا اليوم مكاتب لندن وفينا ورومية وبرلين وبطرسبرج وستوكهولم والاسكوريال في مدريد . واغنى المكاتب بالمخطوطات القديمة مكتبة الفاتيكان في رومية ثم مكتبتا باريس ولندن .

والذي ساعد الغربيين على زيادة نشر الكتب فن الطباعة التي بواسطتها امكنهم ان يطبعوا في ساعة واحدة ما لا يمكن نسخه في شهر بل في سنة . ومن يقدر ان يحصي الكتب التي تطبع كل سنة في انحاء العالم . ففي بلاد الانكليز وحدها طبع في سنة واحدة اكثر من مئة الف الف مجلد . واذا كان نشر الكتب والمجلات والجرائد هو مقياس العمران فالبعد بين عمرانهم وعمراننا شاسع جداً ولكن العمران لا يقاس بكثرة المطبوعات وان كانت احدى مقوماته بل بمقومات أخرى تفوقها شأناً اهمها التربية التي تثقف العقول وتهذب الاخلاق .

وهنا لا بد لنا من السؤال لماذا عني العلماء في الشرق والغرب قديماً وحديثاً بتأليف الكتب وجمعها في المكاتب الخاصة والعامة وظهرت هذه العناية من ملوك الارض وعظمائها ورجالها ونسائها كبنت الملك العادل وغيرها ممن لا يسعنا ذكرهن في هذا المقام . والجواب لانهم عرفوا قيمتها وشدة الاحتياج اليها فانها هي الاساس الذي

تشاد عليه قواعد الصلاح والركن الذي به تثوثق دعائم الاصلاح والسبيل المؤدي الى الخير والنجاح والمرقاة الموصلة الى ذروة الفوز والفلاح والمصابيح التي تنضح بها الرموز والآثار والمفاتيح التي تنفتح بها الكنوز والاسرار بل هي محفوظات عقول الحكماء ومرائي تصورات الشعراء وخزائن آراء العلماء وسجلات اقوال الخطباء واثمار افكار العقلاء وحافظة احكام الدنيا والدين وعلوم الاولين والآخرين .

فلا غرو ان اولع بها اهل الذكاء والفضل وآثروها على كل قنية فاخرة وحلية ثمينة .

قال كنفوشيوس الحكيم الصيني كنت لفرط رغبتي في طلب المعرفة بالدرس والمطالعة انسى جسمي فلا اطلب له طعاماً ولشدة سروري بالوصول اليها اسلو احزاني فلا احسبها موجودة بل اني ادركني الكبر وحلّ بي الهرم ولم احسب لهما حساباً . وقال شيشرون الخطيب الروماني (غرفة بلا كتب جسم بلا روح) وقال المتنبي الشاعر المشهور :

اعز مكان في الدنى ظهر سابح وخير جليس في الزمان كتاب

وقال آخر :

حبيبي من الدنيا كتابي فليس بي الى غيره ما بي اليه من الفقر

وقال آخر :

اذا غاص في بحر التفكر خاطري على درة من معضلات المطالب
خفضت ملوك الارض في نيل شهرتي ونلت المنى بالكتب لا بالكتائب

وقال آخر :

لنا جلساء ما نمل حديثهم الباء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ورأياً وتأديباً ومجداً وسؤددا
فان قلت اموات فلم تعدُ أمرهم وان قلت احياء فلست مفندا

وقال الجاحظ : من كلام طويل في وصف الكتاب « هو الجليس الذي لا يطرئك والجار الذي لا يستبطئك والصديق الذي لا يقلبك والمستميح الذي لا يؤذيك والرفيق الذي لا يملك والصاحب الذي لا يريد استفزاز ما عندك بالملق

ولا يعاملك بالمكر ولا يخدعك بالنفاق يطيعك في الليل طاعته في النهار وفي السفر طاعته في الحضر . وهو المعلم الذي ان افتقرت اليه لم يحقرك وان قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة . ولا اعلم ثاجاً في حداثة سنه وقرب ميلاده ورخص ثمنه . يجمع من التدابير العجيبة والعلوم الغريبة ومن اثمان العقول الصحيحة ومحمود الاذهان اللطيفة ومن الحكم الرفيعة والمذاهب القديمة والتجارب الحكيمة والاخبار عن القرون الماضية والبلاد المتراخية والامثال السائرة والامم البائدة ما يجمعه كتاب . ولولا الحكم المخطوطة والكتب المدونة لبطل اكثر العلم ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر » .

وقال فلون : « لو وضعت تيجان ملوك اوربة كلها عند قدمي بدلاً من كتبي لرفضتها » .

وقال كارليل الكاتب المشهور : « اهم ما يصنعه الانسان في الدنيا وابقاه واثمنه هو الكتب » .

وقال مكولي الكاتب الانتقادي المعروف : « أفضل ان اكون فقيراً في كوخ وعندي كثير من الكتب على ان اكون ملكاً في قصر بلا كتب » .

وقال ادورد كبن المؤرخ : « أفضل كتبي على كل كنوز الهند لان التلذذ بها بهجة حياتي وتاج مجدي » .

وقال ملتن الشاعر : « الكتب ليست جماداً بل اجسام ذات حياة . فانها حياة مؤلفيها والمذكورين فيها فمن يتلف كتاباً كمن يقتل نفساً بل قد يكون اعظم اثماً لان من الناس من في قتلهم راحة للعالم ولكن اتلاف الكتاب المفيد فيه ضرر للعالم» .

وقال تيلر : « الكتاب دليل الشباب الى سبيل الصواب وسلوة الشيخوخة عن قوة الشباب .

وقال هرشل الفلكي ما معناه : « ان غاية ما أتمناه في هذه الحياة واطلبه من ربي في الصلاة ليكون لي ينبوع سرور وهناء وترساً يقيني سهام البلاء وسيفاً اغلب به جيوش الارزاء كتاب ينفعني في السراء والضراء ويرافقني حيث اشاء .

وقد شبه بعضهم الكتب بالاساتذة وشبهها بعضهم بالاصدقاء والحق انهما افضل

من الاساتذة والاصدقاء باعتبارات كثيرة لا يتسع الوقت لبيانها وهي افضل من كل ما يقتنيه الانسان من التحف والطرائف والجواهر والنفائس حتى قال بعضهم انها الغنى كله وتمتاز على كل ما يخلفه الانسان من الآثار الدالة على عظمته وقدرته كالهيا كل الجميلة والمدن الحصينة والقلاع المنيعة وغيرها مما يبقى قروناً عديدة شاهداً بمجد من بنوه ولكنه يفقد رونقه الاصلي على تمادي السنين بل قد يزول ولا يبقى له اثر . وكم من مدينة تهدمت وقلعة دُكت وهيكل اصبح ركاماً مركوماً .

اما الكتب النفيسة فاذا لم تمسها يد الانسان بالاذى بقيت قروناً عديدة برونقها وجمالها وفائدتها وتأثيرها في نفوس قارئيها . وهي خير ميراث يتركه العلماء للجنس البشري وافضل واسطة لاحياء الذكر الى الابد .

ان هوميروس وارسطو وافلاطون وسقراط والمتنبي وابن سينا والفارابي وغيرهم من الشعراء والحكماء يبقى ذكرهم حياً ما دامت كتبهم بين ايدي الناس . والملوك والعظماء الذين لم يتركوا اثراً نافعاً قد باد ذكرهم . ان الكتب تتجدد وتتعدد بالنسخ والطبع على توالي العصور كما نفدت نسخها الاصلية ومع ذلك تبقى قيمتها وفائدتها كما كانت في عصر مؤلفيها بخلاف الآثار القديمة فان قيمتها تزول بتجديدها فتحسب مزورة وكفى بذلك دليلاً على عظمة شأن الكتب وامتيازها على كل مصنوعات الانسان .

وهنا وصلنا الى القسم الثاني من موضوعنا وهو المطالعة التي هي الغاية العظمى من تأليف الكتب وجمعها . ان كثيرين يرغبون في اقتناء الكتب وجمعها اما بقصد المتاجرة او بقصد المفاخرة فهؤلاء لا يستفيدون منها علماً ولا ادباً فلا ينالون الغاية من وضعها مثلهم الا كمثل من يملك مزرعة واسعة ولا يذوق شيئاً من غلاتها او يجمع مالاً كثيراً ولا ينفق منه فلساً على قوته فيموت جوعاً واهراؤه مملوءة قمحاً وصناديقه طافحة ذهباً . ان المطالعة ضرورية لتغذية العقل كما ان الخبز ضروري لتغذية الجسد فكل الناس مفتقرون الى المطالعة لانماء عقولهم بالعلم واحياء نفوسهم بالادب والفضيلة فالذي لم يتيسر له التخرج في المدارس في صغره يستطيع ان يكتسب بالمطالعة ما خسره من الفوائد بعدم دخوله المدارس . ومن الحماقة ان يتخذ عدم درسه في الصغر حجة لعدم المطالعة في الشباب وما بعده من اطوار الحياة بل أحر بذلك ان

يكون حجة للمطالعة لتدارك ما فات . والذي وفق الى دخول المدارس في صغره ونال حظاً صالحاً من العلم لم يزل محتاجاً الى زيادة المعرفة والحكمة وتوسيع المدارك ومن الخطإ الواضح بل الغرور الفاضح ان يكتفي الكتاب والخطباء والمحامون والاطباء وغيرهم من ارباب الصناعات والفنون بما حصلوه في المدارس ويهملوا المطالعة النافعة بحجة انهم قد اكملوا دروسهم ونالوا شهاداتهم فلم تبق بهم حاجة الى المراجعة اوالدرس ولذلك يهملون الكتب ويستحقون بالمجلات ولا يبالون بتوسيع معارفهم حتى تتناقص رويداً رويداً وتضمحل في النهاية فيعجزون عن القيام بوظائفهم ويخسرون كرامتهم ومنزلتهم بين العلماء ويفقدون ثقة الناس بهم لان الطبيب الذي لا يكتسب في كل يوم معارف جديدة ولا يقف على سير الطب الاكتشافات المتعلقة به لا يلبث ان يصبح دجالاً والمحامي الذي لايطالع المجلات الحقوقية ولايطلع على القوانين والزيادات والتفاسير الجديدة لا يلبث ان يصبح محتالاً لانه لايكون له غرض سوى كسب المال فيقبل كل دعوى وهو يجهل نتيجتها . والجهل قد يكون سبباً للاحتيال على الرزق لان من جهل صناعةً وادعى العلم بها واتخذها وسيلة للكسب كان خليقاً بان يسمى محتالاً . اما العالم بصناعته الذي يأخذ اجرته بحق علمه فلا لوم عليه .

ان الذين اشتهروا بالعلوم والفنون وحازوا قصب السبق في ميادين الفضل لم يبلغوا ما بلغوه من الشهرة والتفوق الا بكثرة المطالعة وتكرار المراجعة لا بما حصلوه في المدارس فقط ولا بمجرد الذكاء الفطري .

قال احد الخطباء : « ينسب الناس اليّ ذكاءً ممتازاً والحقيقة اني لست اوفر ذكاءً من غيري وانما انا رجل مجتهد في اتقان صناعتي فاذا أردت ان اخطب في موضوع ما طالعت كل ماوصلت اليه يدي من الكتب المتعلقة به وملأت ذهني بكل حقائقه واحطت علماً بكل تفاصيله فيأتي خطابي محكماً . فما يسميه الناس ذكاءً ممتازاً وحذقاً عظيماً انما هو ثمر درسي ونتيجة تعبي واجتهادي .

وقال الشيخ ناصيف اليازجي في خاتمة مقاماته : « اني قد تلقيت هذه الصناعة من باب التطفل والهجوم اذ لم أقف على استاذ قط في علم من العلوم وانما تلقفت ما تلقفته بجهد المطالعة وادركت ما ادركته بتكرار المراجعة .

وقال الاستاذ ابراهيم الحوراني في آخر حياته : « ما زلت منذ حداثتي أطالع واتعلم الى هذه الساعة فاستفدت من تعليم نفسي اضعاف ما استفدته من معلميّ » .

ويتجلى من ذلك ان المطالعة ضرورية لانماء القوى العقلية وتهذيب الاخلاق الغريزية واكتساب الفضائل النفسية ومعرفة الحقوق الاجتماعية والتأهب لاعمال الحياة الجوهرية . ولا تكون المطالعة نافعة الا اذا روعيت شروطها وهي :

(١) : الرغبة الشديدة في الحصول على المعرفة الصحيحة والارادة الثابتة في طلب الوصول اليها فمن لم يرغب في المطالعة ولم يقصد الاستفادة بكل قواه لم يمكنه الحصول على العلم ولا النجاح في طلبه لان الرغبة القلبية هي سر النجاح في كل عمل يعمله المرء عقلياً كان او يدوياً وكل الذين نجحوا في العالم وبلغوا درجة سامية في الصناعة او العلم كانوا من الراغبين في ما اشتهروا به . ان الرغبة في الشيء تهون الصعوبات الشديدة وتقرب المسافات البعيدة وتجعل المستحيل عند بعض الناس ممكناً عند غيرهم . فمن اراد ان يتعلم لغة تعلمها ولو كان شيخاً طاعناً في السن ومن رغب في اتقان علم اتقنه ولو كان فقيراً سيء الحال .

اما الذين لا يرغبون في المطالعة فلا يمكنهم ان يستفيدوا شيئاً ولو قرأوا الوفاً من الكتب ودخلوا أعظم المدارس .

(٢) : الاقتصار على الكتب الصالحة المفيدة لان مطالعة الكتب الرديئة ليست عديمة النفع فقط بل هي كثيرة الضرر ويحزننا ان نقول ان هذه الكتب منتشرة انتشاراً تصعب ازالته ومنها الكتب الكفرية التي تفسد الايمان وتقود الى التعطيل . والكتب المجونية التي تفسد الاخلاق وتعلم الخلاعة والسفاهة والكلام البذيء . والكتب الخرافية التي لا تتضمن غير الاوهام والخزعبلات والسفاسف والحكايات الكاذبة التي لا يسلم بها عقل . والروايات الغرامية الخيالية التي تضيع الاوقات بتلاوتها ويكتسب مطالعوها منها العادات السيئة والاخلاق الذميمة كالاحتيال والمبارزة والانتحار وطلب المحال وغير ذلك من الامور التي يكثر ورودها في تلك القصص . فكل هذه الكتب وامثالها لا تجوز مطالعتها لانها تفسد المبادىء وتحشو الدماغ بالاوهام وتقود الى أعظم الرذائل والخسائر المادية والمعنوية فيجب على

العائل ان يبتعد عنها ولا يسمح بدخولها البيت ووضعها بين ايدي الصغار ولا يقرأها ولا يسمعها بل يمزقها او يحرقها .

وباليت الحكومة تهتم بهذا الامر كما تهتم بامر الصحة فتمنع طبع هذه الكتب ونشرها وبيعها وتعاقب مؤلفيها وناشريها وبائعيها كما تمنع الدجالين من ممارسة التطبيب والعطارين من بيع السموم وتعاقب بائعيها .

ان اختيار الكتب النافعة لا يقل خطورة عن اختيار الاصدقاء الصادقين فكما انه لا يحسن الاعتماد على صديق الا بعد اختباره وتحقق صدقه ووفائه كذلك لايحسن الاعتماد على كتاب الا بعد تحقق نفاسته وفائدته . ان النفع الكتب هو الذي يترك في نفوس قارئيه افضل تأثير صالح وينفعل في الحياة العقلية ما يفعله نور الشمس في الحياة النباتية والحيوانية فينبه القوي والمدارك وينمي العواطف والسجايا ويحسن الاخلاق والمبادئ .

انا في عصر كثرت فيه الكتب المفيدة المؤلفة باللغة العربية والمترجمة من اللغات الغربية فضلاً عما كان عندنا من الكتب الادبية والعلمية القديمة فلا يصعب علينا وجدان ما نحتاج اليه من المواضيع المختلفة واختيار احسن الكتب التي تبحث عنها . ومما تفيد مطالعته المجلات العلمية كالمقتطف والهلال وغيرهما ومن كان ضليعاً من لغة اجنبية كالفرنسية والانكليزية والالمانية استطاع ان يجد ما لا يحصى من الكتب والمجلات النافعة التي تشتمل على احدث الاكتشافات العلمية وافضل الاختراعات العصرية . ويحسن بالراغب في المطالعة ان يستشير اهل الفضل ليرشدوه الى الكتب والمجلات الغزيرة الفوائد فيكون على بينة من نفعها قبل ان يقرأها ولا يبادر الى قراءة اي كتاب كان لجدته وحسن ظاهره فما كل جديد حسن الظاهر بنافع . وما اكثر الذين تخدعهم الكتب بحسن ورقها وجمال تجليدها وطول عناوينها فيضيعون اوقاتهم بتلاوتها ويتناولون السم من دسمها وهم لا يشعرون .

(٣) : مراعاة الميل الخاص والذوق والحال والسن في ما يختار من الكتب النافعة فبعضهم يميل الى التاريخ ولا يستفيد من العلوم الرياضية وبعضهم يحب الرياضيات ولا يميل الى العلوم الطبيعية . وما يناسب البسطاء لا يناسب الاذكياء

وما يفهمه الكبار لا يفهمه الصغار فيجب على كل راغب في المطالعة ان يختار من الكتب الجيدة ما يلائم ذوقه ويناسب حاله ودرجة فهمه لان الكتب كالاطعمة منها ما هو لذيذ الطعم سهل الهضم كثير الغذاء ومنها ما هو تافه عسر الهضم قليل الغذاء وكذلك العقول كالمعد منها ما هو قوي يهضم كل نوع من الطعام ومنها ما هو ضعيف لا يهضم سوى اللبن . والحكيم من اختار لنفسه ولاولاده الاطعمة التي تناسب اذواقهم وتلائم معدهم ومن فعل خلاف ذلك خسر الفائدة المطلوبة وعرض نفسه واولاده للامراض القتالة .

(٤) : عدم الاقتصار على نوع واحد من الكتب لان الانسان يحتاج الى معرفة اشياء كثيرة لا شيء واحد فقط فيجب على المطالع ان يجتهد في معرفة كل ما يمكنه من العلوم وبعبارة أخرى ان يعرف شيئاً من كل علم فيطالع كتب الفلسفة العقلية لمعرفة حاجات العقل ومرقياته وكتب الفلسفة الطبيعية لمعرفة سنن الكون ونواميس الطبيعة وكتب التاريخ لمعرفة احوال البشر وكتب حفظ الصحة لمعرفة قوانين المعيشة الصحية وتجنب اسباب الامراض وكتب المنطق والبيان ليحسن التعبير عن افكاره بجلاء وقوة وبالجملة يجب ان يلم بما يمكن الالمام به من المعارف المتنوعة وان كان اختصاصياً بنوع واحد منها .

(٥) : تخصيص وقت كاف للمطالعة ولو ساعة كل يوم وهذا لا يصعب على من يريد ان يجد وقتاً وان كانت أعماله كثيرة تستغرق معظم أوقاته لانه اذا أراد تخصيص ساعة للقراءة استطاع ان يختلسها من وقت فراغه او وقت راحته او وقت زياراته او وقت نومه او وقت طعامه او من مجموع هذه الاوقات كلها . والغرض من تخصيص وقت كاف كل يوم للمطالعة المداومة عليها لكي ترسخ فوائدها في العقل فاذا قرأ الانسان خمس ساعات في يوم واحد ثم أهمل القراءة شهراً او اسبوعاً نسي ما قرأ وأضاع فائدته ولكن اذا اعتاد ان يطالع كل يوم صباحاً قبل ان يذهب الى عمله فصلاً من كتاب علمي او ادبي او اجتماعي او تاريخي استنار عقله وتنبهت افكاره واغتذت نفسه وأصبح قادراً على القيام باعماله بكل نشاط وترتيب ونجاح لانه قد استمد من معاني ذلك الفصل ومن روح مؤلفه الشريفة قوة معنوية عجيبة ترافقه كل ذلك

النهار . فكما انه لا يجوز للمرء ان يخرج من بيته باكراً بدون ان يتناول طعاماً يقوي جسده كذلك لا يجوز له ان يخرج من بيته بدون ان يتناول طعاماً عقلياً يقوي نفسه .

(٦) : قصد الاستفادة فلا فائدة من المطالعة بقصد التسلي او التوم او الجدل او الانتقاد او الاعتراض ولا بقصد التسليم الاعمى بكل ما يطالع ولست اعني بذلك انه لا تجوز المطالعة بقصد التسلية على الاطلاق فان في التسلية احياناً فائدة ولكنها اذا كانت هي الغاية من المطالعة انشأت البلادة ومنعت من الاستفادة ولا انه لايجوز الانتقاد ثانياً لانه اذا روعيت قواعده افاد فائدة عظيمة وانما اعني ان تكون غاية المطالع الاولى ان يستفيد مما يطالعه علماً او أدباً او تاريخاً او غير ذلك من الفوائد الجوهرية فان لم تكن غايته الاستفاده أضاع وقته سدى او ربما اضر بنفسه وبغيره اذ يتمرن على المماحكة والمجادلة ويقوده الغرور الى مجادلة من هم أوسع منه علماً واغزر فضلاً تجاريا توهمه في نفسه من قوة الحجة وبلاغة المنطق و براعة الانشاء .

(٧) اتباع الترتيب اذ لا فائدة من المطالعة بدونه ونعني بالترتيب ان يقرأ المطالع الكتاب الذي يختاره من أوله الى آخره على التوالي فصلاً فصلاً ويقرأ الفصل من أوله الى آخره سطراً سطراً بالتأمل والانتباه فيجد لذة عظيمة وفائدة جسيمة . اما الذين يقرأون بضعة كتب في وقت واحد قراءة بلا ترتيب مقتصرين على بضع صفحات من كل كتاب وبضعة اسطر من كل صفحة فلا يجدون فائدة ولا لذة لانهم لايفقهون شيئاً مما يقرأونه لعدم ارتباط المعاني التي يقفون عليها بعضهم ببعض وما مثلهم الا كمثل من يخبط في الظلماء خبط عشواء فلا يرون السداد ولا يهتدون الى المراد .

(٨) : فهم الالفاظ والمعاني التي يعثرون عليها في الكتب التي يطالعونها لان فائدة المطالعة لاتتوقف على كثرة الكتب التي نقرأ بل على فهم ما يقرأ منها كما ان فائدة الطعام لاتتوقف على كثرة ما يؤكل منه بل على ما يهضم منه وربما حصل ضرر من كثرة القراءة بدون فهم كما يحصل ضرر من كثرة الأكل بدون هضم . فخير للانسان ان يقرأ قليلاً ويفهم من ان يقرأ كثيراً وينسى لعدم الفهم .

(٩) : وعي الفوائد التي يفهمها المطالع في ذهنه او كتابتها في دفتر خاص حتى يرجع اليها عند الحاجة لان الذهن قد لايسع كل ما يعثر عليه القارئ في اثناء مطالعته فاذا لم يدونه في مذكرة تحفظ عنده اضاع تعبه بالمطالعة وتعسر عليه التفتيش عما يريده في الكتب التي كان قد قرأها . الا ان الاعتماد الكثير على المذكرات يضعف الذاكرة فلا يحسن الاكتفاء بها بل يجب الاعتماد التام على الذاكرة لانها هبة ثمينة تقوى بالاستعمال كسائر المواهب فلا يجوز اهمالها ولا عدم الثقة بها الا اذا كانت المواد المطلوب حفظها فوق طاقتها فحينئذ يحسن استعمال المذكرات . ومما يفيد المطالع ان يدون ايضاً كل كلمة او عبارة لم يفهمها لكي يبحث عنها في مظانها و يقف على تفسيرها فتتم بذلك الفائدة التي يتوخاها .

(١٠) : استيفاء البحث عن الموضوع المراد العلم به في الكتب المختصة به وذلك بالابتداء من النقطة المركزية فيه وتتبع كل الفروع المتصلة به والاحاطة بجميع اطرافه فاذا اراد المطالع ان يبحث عن قطر من الاقطار كسورية مثلاً وجب عليه ان يطلع على مصورها (خريطتها) و يقرأ تاريخها في كتب متنوعة بحيث يحيط علماً بمدنها وقراها وسهولها وجبالها واوديتها وانهارها واجناس سكانها والدول التي تعاقبت عليها ومذاهب اهلها ونوع حكومتها والنهضة العلمية فيها وآثارها القديمة وصادراتها وغلاتها وسائر ما يتعلق بها و باقليمها وشعوبها القديمة والحديثة وعددهم واديانهم وعاداتهم وعلومهم وصناعاتهم ولغاتهم في كل الادوار التاريخية وحينئذ يستطيع ان يكتب مقالة وافية عن سورية او يلقي محاضرة ممتعة في تاريخها واذا اراد ان يعرف ترجمة احد العظماء او الشعراء كأبي العلاء المعري مثلاً وجب ان يبحث عنها في تراجم الشعراء الموجودة بين يديه و يتتبع اقوال المؤرخين وغيرهم ممن ذكروا هذا النابغة العربي المشهور في كتاباتهم و يقابل بين تلك الاقوال ويمحصها ثم يستخرج منها ترجمة صحيحة لذلك الشاعر الحكيم . وجملة القول انه يجب على الباحث عن المسائل التاريخية او العلمية او اللغوية او غيرها ان يستوفي بحثه و يتتبع كل التفاصيل المتعلقة بموضوعه بالتدقيق والتحقيق الى ان يمتلئ عقله به فيحصل على الفائدة التي يتوخاها . ولا بد من الاعتدال في المطالعة وتجنب الافراط فيها الى حد نسيان الطعام واهمال شروط

الصحة كما كان كنفوشيوس يفعل . فان اجهاد العقل وتحميله فوق طاقته وعدم الاعتناء بالجسد مما تضيع به فائدة الدرس فليحذر طلاب العلم ومحبو المطالعة من ارتكاب هذا الخطإ .

اما الفوائد الناشئة عن المطالعة القانونية فكثيرة اذكر بعضها :

(١) : تسهيل الوصول الى معرفة الحقائق المتنوعة من كل المباحث والتدرج في مراتب الحضارة واجتناء ثمار العلوم بدون مشقة فلا يحتاج الانسان في هذه الايام الى السياحة حول الارض لمعرفة احوال الاقاليم والممالك والبلدان وغيرها ولا الى بناء المراصد واقتناء المراقب ومراقبة النجوم لمعرفة علم الفلك ولا الى بناء السفن وقطع البحار لمعرفة علم الملاحة ولا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة التي تستغرق السنين الطوال لمعرفة العلوم الاخرى بل يمكنه ان يجد كل ما يريده من هذه المباحث وغيرها في الكتب المختصة بها فيقف على افكار الحكماء المتقدمين والمتأخرين والعلماء المحققين والشعراء المفلقين والنوابغ المخترعين والسياح المكتشفين وهو جالس في غرفته لا يبرح مكانه فيكون كل يوم من حياته بمثابة اعوام وكل عام بمثابة قرون كأنه وجد منذ وجود الانسان الاول ولم يزل حيا لهذا العهد وكأنه خالط كل الامم ورأى كل البلدان وجالس كل العلماء وسمع كل الخطباء وعاش في كل عصر وسكن في كل مصر وكل ذلك بتعب يسير ووقت قصير فما اعظم فائدة المطالعة وما اجهل من يستخف بها ويهملها .

(٢) : تثقيف العقل وتهذيبه وتمرينه وشحذه لان القوى العقلية كالنباتات التي تحتاج الى التشذيب لزيادة نموها واثمارها ولا شيء يهذبها مثل المطالعة فالتاريخ يملأ العقل حكمة ودربة واختباراً والرياضيات تقوي الادراك والاستدلال والحجة والطبيعيات ترقي الافكار والشعر يرقق الشعور والمنطق والبيان يعصمان عن الخطإ في الذهن واللسان .

تحسين الاخلاق فلا شيء يمنع الانسان من فساد الاخلاق بعشرة الاردياء ويصون فيه الفضيلة مثل المطالعة لانها تزجره عما ينهك القوى وتشغله عن البطالة والملاهي التي هي اصل المعاصي وتمنعه من التهافت على اللذات المحرمة والاعمال المنكرة

وتكسبه الفائدة واللذة معاً فيعيش مبتعداً عن الرذائل متمسكاً بالفضائل طيب السيرة ممدوح السيرة .

(٤) : توفير المال لان الانصباب على المطالعة يمنع الانسان من انفاق دراهمه في غير وجهها ويعلمه قيمة الوقت وطرق الاقتصاد ويبعده عن المبذرين اخوان الشياطين . قال احدهم : « ان لم يكن اشتغالي بالعلم قد زاد دخلي فانه لاشك قد ساعدني على الاقتصاد في نفقاتي لان انصبابي على المطالعة منعني من تبذير دراهمي بما لا خير فيه » .

(٥) : الابتهاج في حالة الحزن او المرض او التعب او الشيخوخة لان شيء يعزي الانسان ويخفف عنه الآلام ويعينه على احتمال الاسقام ويسليه في بلائه ويسعده في شقائه مثل المطالعة فانها الوسيلة الوحيدة التي بها يذخر الشاب كنوز العلم الثمينة الى زمن الشيخوخة ولا شيء يحسبه الشيخ اكبر داعٍ الى الشكر مثل تعوده المطالعة واعظم موجب للاسف خسارة الشيخ هذه النعمة .

(٦) انشاء محبة الوطن وجعل ابنائه اكثر استعداداً لخدمته فالذي يطالع اخبار المخلصين لاوطانهم الباذلين نفوسهم في سبيل تعزيزها وترقيتها يتولد في قلبه الحب لوطنه ويتأهب لخدمته بما يذخره من المعرفة التي ملأت عقله وأثرت في نفسه وهاجت خاطره ونبهته الى الواجب ودعته الى العمل فما اعظم الفوائد الناجمة عن المطالعة الحقة وما اجهل الذين يهملونها مع كثرة انتشار الكتب ورخص اثمانها وسهولة الحصول عليها وخفة حملها بالنسبة الى ما كانت عليه في الازمنة السالفة . ان الشاب يقدر اليوم ان يشتري كتاباً يقضي بمطالعته شهراً بثمن علبة لفائف للتدخين او بثمن (اوقية شكولات) وهذه نعمة لم يعرفها المتقدمون فقد كانت الكتب في اول امرها باهظة الاثمان ونادرة كل الندور . قيل ان الملك الفرد بذل ولاية عظيمة في مجلد واحد . وبيعت مقالة واحدة بمئتي غنمة واربعين مد حنطة . وبيعت نسخة من الكتاب المقدس باربع مئة ليرة انكليزية فليعتبر المستهترون بالكتب والمطالعة من شبان هذا العصر الذين يؤثرون زجاجة من الراح على لسان العرب والمصباح ولا بدلي في الختام من ذكر بعض مبادئ عملية وهي :

(١) : على الآباء ان ينفقوا جزءاً من دخلهم في ابتياع الكتب والمجلات

والجرائد المفيدة ويضعوها بين ايدي اولادهم ليعتادوا التلذذ بقرائتها من الصغر وتصبح ملكة فيهم زمن الشيخوخة وقسماً كبيراً من مطالب حياتهم . ان اكثر الآباء مقصرون في هذا الواجب فاذا دخلنا بيوت اهل دمشق ولاسيما الاغنياء وجدنا فيها رياشاً فاخراً وتحفاً ونفائس متنوعة ولم نجد في اكثرها كتاباً مفيداً ويندر ان يوجد فيها مكتبة على حين ان الكتب من لوازم البيت الضرورية كالطعام والاثاث .

(٢) : على رؤساء المدارس ومعلميها ان يحببوا المطالعة الى تلاميذهم ويربوا فيهم الميل الشديد اليها ويشجعوهم عليها ويساعدوهم على فهم ما لم يفهموه مما يطالعونه ويسهلوا لهم الحصول على الكتب النافعة ويهتموا بانشاء مكتبة كافية في كل مدرسة . ان اكثر معلمي المدارس لايهمهم سوى قبض الرواتب وقضاء ساعات الدروس بالحكايات التافهة وربما تذمروا بحضور التلاميذ من قلة الرواتب وعدم فائدة العلم فبغضوا اليهم الدرس والتحصيل وولدوا فيهم الكسل والاهمال .

(٣) : على العلماء والاغنياء ان يتعاونوا على تأسيس مكاتب جديدة وجمع كتب مفيدة لكل الطبقات في احياء المدينة ليجني فوائدها العامل والتاجر والموظف والشاب والشيخ في اوقات فراغهم بدلاً من ان يدخلوا بيوت القهوة ويقتلوا اوقاتهم بلعب النرد وغيره . ان الحانات والملاهي وبيوت القهوة في دمشق تعد بالمئات ولكن المكاتب تعد على الاصابع . واللوم في ذلك على العلماء والاغنياء الذين ينفقون الاموال الطائلة على لذاتهم ولا يجودون بالقليل من ثروتهم لعمل مفيد للجمهور . ان بعض الشبان الاغنياء النجباء اظهروا رغبة في معاضدة العلماء وتنشيط الكتاب فليت الباقين يقتدون بهم فتصبح دمشق زاهية بعلومها كما هي زاهية بحدائقها .

(٤) على الحكومة ان تشجع الشعب على هذه الاعمال وتمد له يد المساعدة كما فعلت الحكومة المنتدبة اذ وهبت مبلغاً كبيراً من المال لمكتبة بيروت الكبرى وكما فعلت الحكومة الوطنية بامدادها المجمع العلمي بشيء من المال لاقتناء ما يحتاج اليه من الكتب لفائدة الذين يقصدون المطالعة في المكتبة العامة وهذا مما استحقت عليه الثناء الطيب . الا اننا نرجو منها ان تزيد الاهتمام بهذا الامر الحيوي اكي تتعدد المكاتب العامة وتغرف

القراءة في البلاد السورية فان في تنوير الاذهان وتعليم الجهال ترقية للبلاد وتقليلاً للجرائم واسعاداً للامة .

(٥) على الشبان الذين لم تمكنهم الاحوال من دخول المدارس والطلاب الذين نالوا حظاً صالحاً من العلم ان يثابروا على المطالعة في بيوتهم وفي المكاتب العامة وغرف القراءة كلما سنحت لهم فرصة اكي ينشأوا رجال فضل وادب ويخدموا بلادهم وامتهم احسن خدمة ويعيدوا الى وطنهم ما كان له في سالف الازمان من العز والعمران بفضل انتشار العلم والعرفان والله المسؤول ان يهديهم وايانا أقوم سبيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

بني العرب زيدوا علمكم ما استطعتم ... اكي ترجعوا امجد الاثيل الى العرب
ولا تهملوا الكتب التي جلّ نفعها ... فافضل ما يعلي مطالعة الكتب

انيس سلوم